المحاضرة الثانية : اشكالية التحقيب في الرواية العربية

الجزء الثاني

ثالثا : مرحلة تأصيل ونضج الرواية

هذه المرحلة هي المرحلة الأخيرة في تطور الرواية العربية و التي اعتبرت قمة المراحل و تسمت بمرحلة التأصيل ،و قد تداخلت هذه المرحلة بالمرحلة السابقة عقدا من الزمن حيث كانت الثلاثينات خاتمة مرحلة التكوين و مدخلا الى مرحلة التأصيل ،و اختارت الرواية اتجاها جديدا نتيجة لأسباب و عوامل لم تكن ميسّرة في المرحلة السابقة.

ـ أتيحت الفرصة في هذه الفترة للكتاب الاطلاع على المناهج و طرق البحث العلمي كما اتيحت لهم فرصة الاطلاع على اللغات الأجنبية و الدراسات الواسعة في ميادين الأدب و الرواية و الفروع المختلفة للفكر الأوروبي بلغاته الأصلية.

ـ كان للجامعة المصرية الدور الهام في التمهيد لهذه القفزة النوعية اذ هيأت الذهنيات لجيل مثقف مطلع على الفلسفة ،و علم الاجتماع ،و التاريخ ،و علم النفس.

ـ كانت كذلك الدعوة الى الحرية في التفكير و الاشادة بالقيم الديمقراطية التي علمها الجامعيون لهذا الجيل. كل هذا أخرج جيلا من الكتاب اتجه في كتاباته نحو الواقعية مستعينا بقوى العقل والمنطق في مواجهة الأحداث و المشاكل و التعبير عنها و ابتعد عن النزعة الرومانسية السابقة.

ـ اطلق على هذا الجيل من الكتاب "جيل الجامعيين" لأنهم من خريجي الجامعة منهم "علي باكثير" خريج قسم اللغة الانجليزية ، "عبد الحميد جودة السحار" خريج كلية التجارة و الاقتصاد ،"يوسف السباعي" خريج الكلية الحربية ،"احسان عبد القدوس" خريج كلية الحقوق ، "يوسف ادريس " خريج كلية الطب ،"عبد الرحمان منيف" دكتوراه في الاقتصاد و قمة روائيي هذه المرحلة "نجيب محفوظ" خريج قسم الفلسفة...

ـ تخلص هؤلاء من عيوب كتابات المرحلة السابقة من الناحية الفنية.

ـ حاولوا التخلص من عقدة الانبهار و الاعجاب بالثقافة الغربية ،و قطف ثمار هذا الفكر دون وعي و منهجية.

ـ رغم هذه التطورات من ناحية البناء الفني إلا أنها لم تكتمل أحيانا من ناحية الأسلوب حيث تراوح أسلوبها بين التصوير و هو طابع الفن الروائي و صفة التقرير و هو طابع المقالة.
ـ و يعد "نجيب محفوظ" مؤسس البناء الفني للرواية العربية و بلغ به الذروة الى حد بعيد ،فهو سيد الميدان بلا منازع فرواياته "خان الخليلي" ،و "زقاق المدق" ،و الثلاثية تمثل رؤية جديدة أضافت الى أجواء الرواية عوالم أرحب و أوسع.

و في الستينات من القرن 20 بدأ "نجيب محفوظ" يبدع عالما روائيا جديدا مستخدما تقنيات أكثر ابداعا و أكثر تعقيدا ،و تقف رواياته "اللص و الكلاب" ،و "السمان و الخريف"، و " الطريق" ، و "ثرثرة فوق النيل" ... معلما بارزا في مسيرة الرواية الجديدة.

ذلك أن المضامين الاجتماعية التي عني بها من قبل امتزجت بها في هذه المرحلة مضامين فكرية انسانية و نفسية احتاجت الى شكل روائي أكثر فنية من مرحلته السابقة.

الرواية الجديدة :

بدأت فترة نهضوية متميزة بالأحداث و من أهمها "هزيمة1967" هذه الهزيمة التي أجبرت الروائي العربي إلى إعادة النظر في تيار الرواية الذي كان سائدا قبل الهزيمة ،فهذه الفترة التاريخية ذات الخصوصيّات الواضحة دفعت الرواية كشكل أدبي مستحدث أن تنشأ و تتطور عبر كثير من التجارب. و ارتبطت الرواية العربية الجديدة بالتغييرات التي سيعرفها المجتمع العربي و ستنعكس في الرواية لطبيعتها القابلة للتعبير عن كل مظاهر المجتمع الجديدة، حيث يتداخل فيها المتخيل بالواقع. و حاول الروائيون الجدد استيعاب كل التحوّلات التي وقعت في المجتمع العربي دون العناية بطابع المحلية و حصرانهم فيها كما فعل الجيل السابق.

و يؤكد الروائي "عبد الرحمان منيف" على أن هذه الهزيمة شكّلت ولادة جديدة للرواية العربية لأنها أحدثت تراكما على مستوى الإنتاج اذ دفعت الى السطح العديد من الأسئلة و المواضيع الساخنة و التي تتطلب المواجهة والمعالجة ،و ظهر هذا التأثير الذي أحدثته الهزيمة حسب "عبد الرحمان منيف" من خلال ما يلي :

1ـ تراجع التيار الوجودي و الواقعي الذي ساد في الخمسينات و الستينات لتطرح بدلا منه رواية تهتم بالهم القومي و قضايا أخرى.

2ـ بهذا التطوّر تراجع المركز الموجّه و المسيطر سابقا و الذي هو "مصر" قياسا بالماضي لتبدأ بقية المناطق العربية تعرف تطوّر هذا الجنس مما أدى الى تغيير خريطة الرواية التي امتلأت بأسماء عربية و إنتاجات متنوعة تفترق على المستوى الجغرافي و لكنها تلتقي في قضايا و موضوعات مشتركة كالحريّة ،و التحرّر ،و السيّاسة ،و الإنتماء الوطني و القومي ،و القضيّة الفلسطينية و الصّراع الطبقي.

فهذه الرواية الجديدة عرفت تحويرات في مضامينها و أشكالها ،بالمقارنة مع الشكل الروائي السابق ،و خرجت عن نمطها الكلاسيكي المتمثل في الرواية التعليمية و الرومانسية و الواقعية لتصبح ضمن الإطار العام حاملة لخلفية فكرية وراء شكلها الإبداعي.

في هذه المرحلة إذن استطاعت الرواية أن تتطور وتتقدم حيث تخلصت من عيوب الأسلوب و التشكيل ،مما جعل الرواية تنفصل أكثر فأكثر عن التقليد الأوروبي و جعلها تعرف التطور و التقدم كمثيلتها الغربية.

فالهزيمة أبعدت الروائيين الجدد عن الرواية التقليدية و أظهرت أنماطا روائية جديدة. فجاءت أغلب الروايات منقطعة عن جذورها الكلاسيكية.

التجريب :

عرفت الرّواية العربيّة في هذه الفترة فكرة التّجريب مبتغيّة أشكالا و تقنيّات نوعيّة تبني بها معمارها و تعبّر عن فكر و هموم الأمّة العربيّة فهي ديوان العرب الجديد.

و على الرّغم من ارتباط الرّواية الجديدة بالواقع إلا أنّها ليست واقعيّة "نجيب محفوظ" فهي شكّلت بناءها الفنّي من خلال تقنيّات عديدة لتصبح وسيلة تعبير أقدر من غيرها على رصد الحركة الدّاخليّة و اكتشاف مسارها و المساهمة فى توجيه هذه الحركة و هذا المسار ،فأصبحت ترمز لى واقع آخر ،واقع الحضارة و الحريّة و تجعل من التّاريخ رمزا للمجتمع أو لعلاقات إجتماعيّة جديدة على اعتبار أن الأدب في أبسط تعاريفه هو ردم الهوة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون.

و كانت ل"نجيب محفوظ" إضافة لا تنكر في هذه المرحلة ،ليظهر بعد ذلك جيل من الروائيين العرب سميّ بجيل الحداثيّين خرجوا عن الرؤية القديمة التقليدية وتقنيّاتها. و ثاروا على الأساليب المألوفة كالحبكة و البطل و السرد التاريخي.

و كتبوا رواية تنوّعت تقنيّاتها ،على المستوى الشكلي ،فظهرت تنويعات في أساليب السرد و تعدد التقنيّات في المزج بين الوصف و التذكّر و المشاهد الحواريّة. و قد برزت أسماء روائيّين من أقطار متعدّدة مثل "الجزائر " و " والسّودان" و "المغرب" و العراق" كان هدفها الإنطلاق من البيئة وحمل هموم الإنسان.

و من هنا لم يبق الأساس هو تمييز روايات تصدر في قطر معيّن و إنما الأساس وضعهم في السياق العام لتطوّر الرّواية العربيّة ككلّ. و قد ارتبطت الرّواية في هذه المرحلة بالواقع العربي العام منه والمحلّي مم جعلها تحلم أن تكون التّاريخ العميق لعلاقات اجتماعية تبحث عن ذاتها ،عن مفتاح علاقتها ،و من ثمّ عليها أن تستلهم خصائصها الرّوائية العربية ،سواء فيما يتعلّق باللّغة او الأسلوب.

استمدّت مادّتها من واقع عربي و تبعا لحركاته من خلال فترات مختلفة ،و عالجت هذا العالم من زوايا مختلفة و عبر رُؤى تميّزت بنوع من التّفرّد ،من هنا ظهرت مجموعة من الأسماء الروائيّة المتميّزة.

و على أيدي هؤلاء الكتاب مثل "صنع الله إبراهيم" ،و "حنا مينا" ،و "جمال الغيطاني" و "أدوار خياط" و "الطيب صالح" ،و "بهاء طاهر" ،و "إميل حبيبي" ، و "الطاهر وطار" ،و "عبد الرحمان منيف" " محمد زفزاف" و غيرهم ظهرت رؤية روائيّة تحمل إتّجاهات معاصرة و حداثيّة مختلفة من أهم سماتها : أن الخطاب الروائي تجاوز المفاهيم التقليديّة حول الرواية في عصورها الكلاسيكية و الرومانسيّة و الواقعيّة و تداخلت أساليبها مع تداخلات العالم الخيالي و الصّوفي والواقعي و التّاريخي مما جعلها سواء في حبكتها أو في شخوصها أكثر تعقيدا و أعمق تركيبا.

و من ثمّة ظهرت أعمال روائيّة حاولت التّأريخ لحقبة معيّنة و وضع إجتماعي معيّن و أصبحت الأعمال ترصد التّغييرات وحركة الحياة في صيرورتها و تحوّلاتها المستمرّة لتكون سنوات السّبعينات قد أعطت رؤية جديدة من خلال محاولة كتّابها أن يكتبوا شيئا جديدا.

و يمكن القول أن أعمال "جبرا إبراهيم جبرا" أبرزت مستويات عديدة و مواقف فكرية وسياسية تقاطعت في أغلب الأحيان مع أعمال "غسّان كنفاني" فأعمال "جبرا إبراهيم جبرا" صراخ في ليل طويل تشكّل معبرا و جسرا للتّطوّر الجديد الذي أحدثته أجيال جديدة في الرّواية العربيّة.

أمّا "صنع الله إبراهيم" فكان يسكنه على مستوى المضمون نفس الهم ،و لكن على المستوى الفنّي فقد حطّم السّرد الرتيب و الحبكة المصنوعة ...

امّا "جمال الغيطاني فعمله "الزيني بركات" و أعماله الأخرى نجدها تمثّل بصفة عامّة جانبا من الإبداع المستمر.

و "عبد الرحمان منيف" فقد حقّق تراكما في التّجربة الروائيّة العربيّة هذا التّراكم جعله يرسّخ أسلوبه بحضور التّاريخ العربي في كلّ أعماله.

نخلص من هذا أن الرّواية العربيّة في مرحلة السّبعينات و ما تلاها عرفت منعطفا جديدا يختلف عن المرحلة السّابقة خاصّة على مستوى البناء الفنّي المتعلّق بطرق السّرد و تقديم المادّة الحكائيّة.

و وصلت الرواية بذلك إلى دنيا النص المفتوح الذي يفضي إلى قراءات متعددّة لاتصل إلى تفسير نهائي للخطاب الروائي كما هو الحال في الرّوايات السابقة.

الرّواية العربيّة المعاصرة :

الرّواية كما سبق و ذكرنا هي التي يعالج فيها المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر ،فلا يفرغ القارئ من قراءتها إلاّ و قد ألمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلهم المختلفة ،ميدان الرواية فسيح أمام القاص يستطيع أن يكشف أستارا عن حياة أبطاله و يجلو الحوادث مهما استغرقت من وقت.

اتجاهات الرواية في السبعينات :

عرضنا أهم المحاور الّتي تناولتها الرواية العربية قبل السّبعينات و جاءت الرواية في فترة السبعينات و ما بعدها بصورة جديدة. فقد تنوّعت الرواية إلى حدّ كبير من ناحية الأساليب و السرد و التخلّص من الأسس التقليدية للسّرد : كالعرض ،و العقدة ،و الحلّ. كما تقدّمت في التخييل و التصوير.

ـ من ناحية المضامين حاولت إستعاب جميع التحوّلات التي حدثت في المجتمع العربي مع الخروج عن طابع المحلية ،فتناولت بالتّصوير و التّمثيل بالأحداث أينما وقعت و اهتمت بالهمّ القومي و القضايا السيّاسيّة.

ـ ما يمكن نقول أنه حدثت ثورات عنيفة على الرّواية التقليدية و أدّت هذه الثورة إلى ظهور اتجاهات جديدة ،و إن كانت متأثرة إلى حدّ بعيد بالغرب إلّا أنّ التّأصيل و التّكوين ظهرا فيها في أسرع وقت ،و هذه الإتّجاهات هيّ :

1ـ رواية تيّار الوعي:

كان هذا الإتجاه بمثابة ثورة عارمة على الرّواية التقليديّة ،و قد بدأ في الأدب الغربي على يد "مارسيل بروست" في رواية "البحث عن الزّمن الضّائع" و "جيمس جويس "في رواية "أوليس".

و بهذا التّيّار ظهرت تطوّرات هامّة في عالم الرّواية ،فقبل ذلك كان الطّابع الأساسي هو تسلسل الأحداث ،و تفاعل البطل مع هذه الأحداث ،لكن بظهور هذا التّيّار تغيّر الأسلوب ، و أصبح اكتشاف العقل الباطن الخفيّ مثار الاهتمام ،لأنّه المحرّك الأساسي للفكر والسّلوك.

ومقوّمات هذا الإتجاه تتمثل في:

1ـ المونولوج الدّاخلي المباشر ،و فيه يغيب المؤلف ،و يتمّ الحديث فيه بضمير المفرد و الغائب.

2ـ المونولوج الدّاخلي غير المباشر ،و فيه يحضر المؤلّف عبر الوصف و التعليق ،و يكون الحكي فيه بضمير المتكلّم.

3ـ وصف الوعي الذّهني للشّخصيّات.

4ـ مناجاة النّفس.

5ـ التّداعي الحرّ عن طريق الخيال و الحواس.

6ـ المونتاج السّنمائي عن طريق تعدّد الصّور و تواليها.

و قد تأثّر الكثير من الرّوائيّين العرب بهذا التيّار الذي أدّى إلى ظهور التعبيرات الرّمزيّة في أعمالهم ،مثل رواية " الشّحاذ" ل"نجيب محفوظ" و رواية " الزّمن الموحش" ل "حيدر حيدر".... و الذي ساعد على انتشار هذه المدرسة الرّوائيّة هيّ الروايات المترجمة المكتوبة بهذا الأسلوب ،ثم ترجمة مفاهيم علم النّفس...

2- الرّواية الطّليعيّة :

هذا هو الإتّجاه الآخر الذي انتشر بعد السّبعينات و هو الإتّجاه الطّليعي أو الرّواية الطّليعيّة ، و هي تعني استخدام تقنيّات فنّيّة جديدة تتجاوز الأساليب و الجماليّات السائدة و المعروفة بهدوء و بطء.

و قد تميّزت الرّواية الطّليعيّة باستخدام تقنيّات السينما و تقطيع الصور و لوحات مستقلّة تعطي مجتمعة انطباعا و إحساسا واحدا.

كما تميّزت باستخدام المونولوج الدّاخلي ،و الفلاش باك في التصوير و كذلك من مميّزاتها الأخرى اسلوبها الشّعري ،و النّظر إلى الحادثة الواحدة من زوايا متعدّدة ومختلفة.

من الرّوائيّين الذين تجلّت هذه العناصر في أعمالهم ،"جمال الغيطاني" و "صنع الله إبراهيم" و "إميل حبيبي" و "جبرا إبراهيم جبرا" "عبد الرحمان منيف" و "إلياس خوري"...

3- الرواية التّجريبيّة :

هذا الاتجاه أحدث اتجاه ظهر في عالم الرّواية و اعتمده المعاصرون بوصفه تقنيّة جديدة من أجل تجاوز واقعهم الفنّي المستهلك.

قامت الرّواية التّجريبيّة على توظيف البناءات و الأحلام ،و استغلال تقنيّات الشّعر و اللاّشعور و الإعتماد على الوعي واللا وعي و إلغاء عنصري الزّمان والمكان. وقد ظهر هذا الإتّجاه لبناء أدب مضاد للإبداع المتعارف عليه عن طريق تدمير البنيات الشّكليّة للرّواية و عناصرها الفنيّة و تفجير اللّغة و الخروج عن الأنماط الرّوائيّة السّائدة و السّير نحو الإبتكار. و الدّخول إلى عالم مجهول منقطع عن الماضي و الحاضر متفائل بالمستقبل ،و من أشهر هؤلاء الرّوائيّين "أحمد المديني" حيث يرى الرّواية فيض لغوي و ثراء لفظي يتجاوز العادي و المألوف خارجا عن البناء الرّوائي السّابق ...